الحمل المذبوح على الصليب – وانشقاق حجاب الهيكل: علي ضوء ذبائح سفر اللاويين

(للأب د. أغسطينوس منير الفرنسيسكاني)

مقدمة

عبر صفحات العهد القديم، وخصوصًا في سفر اللاويين، يظهر سؤال عميق يتعلق بكيفية تصالح الإنسان مع الله بعد أن وقع في الخطيئة، وأصبح الانسان بعيد عن حضوره، محرومًا من أن يكون في قداسته. الخطيئة خلقت فجوة او هوة كبيرة بين الإنسان والله، فجعلت الإنسان عاجزًا عن العودة إلى الله أو حتى قادر علي أن يطهر نفسه. وفي هذا السياق، نرى أن الدم يظهر كوسيلة للخلاص، لا كرمز عنيف، بل كأداة تحقق المصالحة والشفاء.

في سفر اللاويين، يقدم الله لشعبه نظامًا دقيقًا للذبائح ودور الكهنوت، حيث يظهر أن الغفران لا يأتي من دون ثمن (ليس مجانا)، وأن المصالحة لا يمكن أن تتحقق إلا عبر الذبيحة.

اذ عندما كان الإنسان يخطئ، كان يأتي بذبيحة إلى خيمة الاجتماع بحسب ما يحدده الناموس في سفر اللاويين. كان يقف أمام الكاهن، ويضع يده على رأس الذبيحة، في مشهد يحمل رمزًا عميقًا: أن الخطية تُنقل من الخاطئ إلى الحيوان البريء، الذي لم يفعل - يقترف شرًا. هذه الممارسة البسيطة لم تكن مجرد طقس، بل إعلان صامت أن هذا الكائن سيموت بدلاً من الإنسان، كفارة عنه. بعد ذلك، تُذبح الذبيحة أمام الرب، ويأخذ الكاهن من دمها، لأن الدم هو الحياة، وبه فقط يكون التكفير. في بعض الأحيان، كما في لاويين ٤، كان الكاهن يرش الدم أمام الحجاب داخل القدس، ثم يسكب باقي الدم عند قاعدة مذبح المحرقة. كان ذلك إعلانًا أن الحياة (حياة الكبش) قُدِّمت عوضًا، وأن العدل الإلهي قد أُرضي مؤقتًا. ثم تُحرق أجزاء معينة من الذبيحة على المذبح، بينما يُحرق باقي الجسد خارج المحلة في بعض الحالات، كما في لاويين الإصحاحين الرابع عشر- والسادس عشر, بهذا يُغفَر للإنسان وتُستر خطيئته. لم يكن الغفران لان الحيوان قادر علي ان يزيل الخطئية: بل لأن الله قبل هذا الرمز، انتظارا للذبيحة الحقيقية – للحمل الوديع الذي ساتي، يقدم نفسه مرة واحدة، لا في ظل، بل في الحقيقة.

هذا النظام كما سنري لم يكن مجرد مجموعة من الطقوس الدينية، بل كان يحمل في طياته نبوءة عميقة: "المصالحة الحقيقية لم تأتِ بعد"، كانت الذبائح وسيلة مؤقتة، تشير إلى أن الذبيحة الكاملة لم تُقدَّم بعد، وأن الأمل في الخلاص سيظل قائمًا إلى أن يأتي الفداء الحقيقي. ولكن علي أي حال ذلك النظام كان يعكس عمق الحاجة إلى المصالحة مع الله، ويوضح أن الإنسان لا يمكنه أن يقترب من قداسة الله إلا من خلال الثمن المدفوع، وهو الثمن الذي يرمز إليه الدم في الذبائح. ورغم أن هذا النظام كان خطوة نحو العودة إلى الله، إلا أنه كان يعبر عن حاجة أكبر إلى الخلاص التام الذي لا يأتي إلا من خلال الذبيحة الكاملة التي لم تُقدَّم بعد.

سفر الاويين – ونظام الذبائح اعلان الحاجة الي الدم.

في قلب سفر اللاويين، يظهر اذا أن نظام الذبائح ليس أداة طقسية فحسب، بل جوهر العبادة الحقيقية التي تربط الإنسان بالله. لا يمكن للإنسان أن يبقي في علاقة مع الله دون الدم، لأن الدم في الكتاب المقدس يُعتبر الحياة نفسها، كما جاء في لاويين ١٧: ١١ "نفس الجسد هي في " الدم". بكلمات اخري لنتعمق أكثر، هي أن الخطية تقتل، والعودة إلى الحياة لا يكون إلا بسفك دم بديل. الفكرة الأساسية هي أن الدم يمثل قوة الحياة، وفقدان هذا الدم يجعل الإنسان غريبًا عن الله، غير قادر على استعادة العلاقة معه. لكن رغم تعدد الذبائح وتكرارها، فإنها لم تقدم تطهيرًا نهائيًا للإنسان، بل كانت بمسابة تذكير مستمر بخطيئته. كل ذبيحة كانت تعيد تسليط الضوء على الخطيئة البشرية، وضرورة استمرار الفداء، دون أن تحققه بشكل كامل. وُجدت الذبائح لتكون شهادة مستمرة على العجز البشري عن الوصول إلى الطهارة الكاملة، وكان السؤال الذي يتكرر مع كل ذبيحة هو: **إلى متى؟ وهل هناك سبيل لوجود مصالحة حقيقية ونهائية بين الإنسان والله؟**

هذه الذبائح، رغم أنها كانت رمزية، كانت تعكس بشكل عميق جوانب من عمل المسيح الفدائي في المستقبل. ففي المحرقة، نجد إشارة إلى طاعة المسيح الكاملة واستسلامه الأبدي للآب، تلك الطاعة التي كانت تبدأ وتنتهي في حب

غير مشروط للآب. أما التقدمة، فهي تعبير عن قداسة المسيح التي لا تشوبها خطيئة، وحياته الطاهرة التي تميزت بالكمال الإلهي. في ذبيحة السلامية، يظهر المسيح كمن جلب او حقق المصالحة والشركة الحقيقية مع الله، كمن يفتح الطريق أمام كل إنسان ليتذوق السلام مع الله من خلاله. أما ذبيحة الخطيئة وذبيحة الإثم، فتعكسان عمق عمل المسيح الكفاري، حيث حمل المسيح خطايا البشر على عاتقه، وحمل العار الذي يسببه هذا الخطأ، فكان هو البديل الكامل، الحمل الذي كان بلا عيب، والذي قدّم نفسه من أجل خلاص الجميع.
لكن رغم عظمة هذا النظام الذي وضعه الله، فإنه يبقى ناقصًا، لأن الذبائح الحيوانية لا يمكن أن تعبر عن عمق الخطيئة البشرية. فالحيوان لا يُكافئ الإنسان، والذنب الذي وقع على البشرية لا يمكن أن يمحي بدم حيوان. وبالتالي، ظل الإنسان في حالة انتظار لمجيء الذبيحة الكاملة، تلك التي ستكمل المصالحة وتحقق الفداء الحقيقي. هذه الذبائح كانت مجرد ظلال، مؤشرات ورموز لما سيحدث في ملء الزمان، حين يأتي المسيح فيجسد الفداء النهائي الذي لا مثيل له.

ثانيًا :يسوع المسيح ـــ الحَمَل الذي أعلن النهاية والبداية

في مشهد يوحنا المعمدان وهو يصرخ: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم!"، يتوقف الزمن بين العهد القديم والعهد الجديد، ليكشف لنا عن معاني لاهوتية عميقة وحقيقية. في هذه اللحظة، لا يعود الدم المراق في الذبائح الحيوانية مجرد طقس رمزي يهدف إلى تمثيل الخلاص، بل يتحقق الخلاص نفسه في الشخص الحيّ، الكلمة المتجسد. يسوع المسيح، الحمل الإلهي، يقف بين الناس ليس فقط ليكمل ما بدأه النظام الطقسي في العهد القديم، بل ليكون هو نفسه الذبيحة الكاملة التي تطهر وتغفر خطايا العالم مرة واحدة وإلى الأبد. هذا الإعلان ليس مجرد إعلان لحدث تاريخي، بل هو انفجار لاهوتي يهدم كل المفاهيم الرمزية التي كانت سائدة في العهد القديم، ويكشف عن تحقيق الفداء في شخص المسيح، يسوع المسيح نفسه في ظهوره كحمل الله، لم يأتِ ليكون جزءًا من سلسلة الذبائح التي تتكرر مع كل سنة، بل ليكون هو ذبيحة نهاية الزمان، الذبيحة التي تكمل كل الذبائح وتلغى جميع الطقوس المؤقتة. لم يُقدَّم عن قوة قسرية أو كضغط خارجي، بل قدم نفسه طواعية، بحرية إرادته، ليكون الكاهن الذي يقدّم الذبيحة، والمذبح الذي تقدّم عليه الذبيحة، والذبيحة ذاتها التي ترفع خطايا العالم كحمل الله، لا يمثل مجرد تطهير للخطيئة، بل إنه هو الذي يأخذ خطايا البشرية بالكامل على عاتقه. كان هذا الفعل ليس مجرد تنازل عاطفي، بل هو تجسيد لإرادة الآب التي قبلها الابن بكل محبة وحرية. لم يكن ذبحه على الصليب مجرد حدث من أحداث التاريخ، بل هو قلب التقدمة الإلهية، حيث أصبح المسيح هو الجسر الذي يعبر عليه الإنسان من الموت إلى الحياة، ومن الخطيئة إلى البر. وعندما نطق يسوع بالكلمات الأخيرة: "قَدْ أُكْمِلَ!"، لم تكن هذه مجرد عبارة تنتهي بها حياة إنسان عظيم، بل كانت صرخة لاهوتية اكتمال عملية الفداء التي بدأت في خطة الله الأزلي. هذه الكلمات تعني أن كل شيء قد تم، وأن الذبيحة قد قُدمت بالكامل، وأن الطريق إلى الله قد فُتح من خلال المسيح. لم تعد هناك حاجة إلى ذبائح أخرى، لأن الفداء الذي تحقق في المسيح كان كاملاً وشاملاً، إذ قدّم نفسه كذبيحة مرضية أمام الله الآب.

ثالثًا :انشقاق حجاب الهيكل ـــ النهاية العظمى للوساطة البشرية

إن لحظة انشقاق حجاب الهيكل تشكل ذروة عظيمة في تاريخ الفداء لحظة لا تعد مجرد حدث مكاني وزماني بل هي إعلان لاهوتي بليغ يجسد نهاية الوساطة البشرية وفتح الطريق المباشر بين الله والإنسان في مرقس ١٥: ٣٧- ٣٨ نرى يسوع يصرخ صرخة عظيمة يسلم فيها روحه وحينها ينشق الحجاب الذي كان يفصل بين قدس الأقداس وبقية الهيكل, هذا الحجاب الذي لم يكن مجرد ستارة عادية, كان بمثابة الحاجز الإلهي بين الله والإنسان شهادة مستمرة على أن الإنسان بخطيئته لا يستطيع دخول حضرة الله, وأن الطريق إليه مغلق, إلا من خلال الوساطة المقدسة, كما ذكرنا سابقا : رئيس الكهنة الذي كان يدخل مرة واحدة في السنة حاملا دم الكبش ليجلب نوعا من المغفرة المؤقتة. لكن هذه الممارسة كانت تظل محدودة وتعبر عن العجز البشري في الوصول الكامل الي الله.

لكن عند موت المسيح جاء هذا الحدث ليعلن شيئاً مغايراً تماماً: الحجاب انشق من فوق إلى أسفل وهو ما يعبر عن تدخل الله الحاسم والمباشر في تاريخ البشرية. لم يكن البشر هم من قرروا الفتح او هم من بادروا بإزالة هذا الحاجز (حجاب الهيكل), بل كان الله هو الذي قام بهذه الخطوة الجرئية ليعلن أن الطريق أصبح مفتوحاً للجميع لا يقيده الزمان ولا المكان. **انشقاق الحجاب لم يكن مجرد تفصيل في القصة الإنجيلية بل كان إعلاناً لاهوتياً عميقاً عن أن الوساطة البشرية قد انتهت وأن المسيح نفسه قد أصبح الوسيط الوحيد بين الله والإنسان.** من خلال جسده المبذول ودمه المسفوك على الصليب فتح المسيح الطريق الجديد والحي طريقاً لا يعتمد على طقوس ولا على وسائل بشرية بل على إيمان الإنسان بالمسيح كذبيحة (حمل) كاملة مقبولة أمام الله. وهذا الفعل لم يقتصر على طبقة معينة أو فئة خاصة بل أصبح متاحاً لكل إنسان من أي خلفية دينية أو ثقافية أن يدخل إلى الله مباشرة ليس من خلال كاهن بشري بل من خلال الإيمان بالمسيح.

انشقاق الحجاب هو التحقق الكامل لمغزى عمل المسيح الفدائي. لم يعد هناك فاصل بين الله والإنسان ولم يعد هناك حاجة لممارسة الطقوس المرهقة أو الوساطة البشرية التي كانت تعبر عن التباعد بين الله والإنسان الآن في المسيح أصبح لكل مؤمن الحق في أن يدخل إلى قدس الأقداس إلى حضرة الله دون خوف دون وساطة بشرية لأن المسيح وحده هو الوسيط والكاهن الأعظم الذي يقدم الفداء الكامل والمصالحة التامة مع الله.

رابعًا :البعد الروحي — ما الذي يعنيه الصليب لي اليوم؟

في البعد الروحي للصليب نجد دعوة تتجاوز المفهوم العقلي اللاهوتي لتلامس قلب الإنسان وتغير حياته على أرض الواقع. الصليب ليس مجرد حدث تاريخي تم في الماضي بل هو دعوة مستمرة دعوة إلى عيش واقع الفداء الذي تحقق فيه كل وعد إلهي إنه ليس فقط تذكارًا لما فعله المسيح من أجلنا بل هو دعوة مستمرة للاقتراب من الله وإدراك عمق محبته التي لا تُقاس. إذا كان الحمل قد ذُبح لأجلي فلا داعي أن أعيش مثقلًا بالذنب فدم المسيح يطهرني من كل خطيئة. **إذا كان الحجاب قد انشق فلماذا أظل بعيدًا وأقف في الخارج لقد فُتح الطريق إلى الله من خلال موت المسيح على الصليب. والآن لا يوجد حاجز يفصلني عنه.** وإذا كانت المصالحة قد تمت, فلماذا أهرب من وجه الله؟ الصليب يعلن أن المصالحة قد تحققت من خلال محبة الله . الصليب هو مكان اللقاء العميق بين الإنسان والمغفرة الإلهية حيث يقف الإنسان المذنب في مواجهة محبة الله اللامتناهية ويُغفر له ويُشفى جرحه الداخلي العميق في لحظة الصليب تُكسر قيود الخطية وسلطانها ويضع المؤمن يده على رأس الحمل ليس رمزيًا بل بالإيمان قائلًا يا رب لأجلي قُدمت لأجلي ذُبحت إنها لحظة الاعتراف العميق بأن الفداء هو عمل شخصي ومباشر يخص كل فرد على حدة.
ومن تلك اللحظة يبدأ الإنسان حياة جديدة حياة لا تقوم على الخوف من الدينونة أو العقاب بل على الشكر العميق لله على نعمته التي لا تُحصى فالمؤمن لا يسير بعد ذلك في طريق إرضاء الله عبر طقوس أو أعمال فقط بل يسير كابن حقيقي داخل الي محضر أبيه في علاقة حية ومفتوحة بالصليب. تجعلنا نعيش في حالة من الخوف او القلب بشان المستقبل بل يدعنا لنعيش في أمان معتمدين علي والي محبة الله التي لا تحد.

الخاتمة

في حمل الله المذبوح (يسوع المسيح) اذا: التقت رموز سفر اللاويين بحقيقتها الكاملة حيث كان النظام الكهنوتي في العهد القديم، مع الذبائح التي كانت تقدم بشكل دوري، ظلًا يعكس حقيقة أعمق من تلك الطقوس نفسها كان ذلك النظام بمثابة تصوير مؤقت للذبيحة الحقيقية التي كانت ستُقدم في الزمن الكامل، وهكذا عندما جاء يسوع المسيح كحمل الله المذبوح، تحققت هذه الرموز في شخصه ومات علي الصليب ليكمل كل ما كان تتطلع اليه طقوس القديمة. لقد أنهي الصليب عصر الظلال والذبائح وفتح باب النور للإنسان, ليصل الي الله مباشرة من خلال المسيح الذي اصبح الوسيط الوحيد والفعال للمصالحة.

الصليب يمثل الفعل الذي أنهى كل محاولة بشرية للوصول إلى الله من خلال الطقوس والذبائح التي كانت تفتقر إلى القدرة على إزالة الخطيئة بشكل نهائي. الصليب يمثل نهاية الفاصل الذي كان يفصل بين الإنسان والله. الحجاب الذي كان يغلق الطريق إلى قدس الأقداس، ذلك الموضع الذي كان يُسمح لدخول إليه مرة واحدة في السنة، انشق عند موت المسيح على الصليب من أعلى إلى أسفل. لم نعد بحاجة الي شيء ولا حتي إلى مذبح من حجر، لأن المؤمن نفسه أصبح مذبحًا حيًا، إذ أن الروح القدس يسكن في قلبه ويجعله موضع تكريس لله. أصبح الإنسان الآن مكانًا مقدسًا لله، وذلك بفضل عمل المسيح على الصليب الذي جلب الفداء والقداسة لكل من يؤمن به. لم نعد بحاجة إلى كاهن أرضي ليشفع لنا في المقدس، بل أن رئيس كهنة واحدًا، يسوع المسيح، هو الذي يشفع فينا في السماوات أمام الآب. الصليب يعلن الحقيقة الأبدية أن المسيح هو الوسيط الوحيد بين الله والإنسان وأنه هو الذي يحمل المسؤولية عن تقديم الفداء الكامل والمصالحة الدائمة بين الله والبشر.

الصليب ليس مجرد محور للإيمان المسيحي بل هو قلب الحياة الروحية اليومية للمؤمن. هو المكان الذي يبدأ فيه الإنسان كل علاقة حية ومستدامة مع الله. إن علاقة المؤمن بالله لا تُبنى بعد على الطقوس فقط بل على الفداء الذي تم على الصليب. حيث إن الإنسان لا يسير في حياته الروحية وهو خائف من الدينونة أو العقاب، بل يعيش في فرح دائم بفضل النعمة التي تدفقت من خلال صليب المسيح. الحياة المسيحية هي حياة الشكر والامتنان لله الذي جلب الخلاص من خلال الصليب، وهو الخلاص الذي لا يرتبط بزمان أو مكان بل هو موجود دائمًا، على مدار الحياة اليومية للمؤمن. هناك على الجلجثة، لم يكن موت المسيح مجرد تقديم حمل فداء لحظي، بل انفتح من خلاله الطريق الدائم والمباشر إلى الله، ومنذ ذلك اليوم لم تعد المسافة بين الإنسان والله تُقاس بالخطية، بل تُردم بالنعمة. الصليب هو الرابط الذي جعل من الإنسان نقطة التقاء مع الله نفسه، وجعل العلاقة معه علاقة حية لا تتوقف عند تقاليد أو طقوس بل هي نابعة من الإيمان الحي بالمسيح المصلوب والقائم.